ألوان الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبَّاني: دراسة نقدية

خليل حرب [1*]

الاستـــلام: ٢٦/ ٢٠٢٥/١١
التحكيم: ٢٧/ ٢٠٢٥/١
القبـــــول: ٢٨/ ٢٠٢٥/١٢

© 2026 University of Science and Technology, Aden, Yemen. This article can be distributed under the terms of the Creative Commons Attribution License, which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original author and source are credited.

© 2026 جامعة العلوم والتكنولوجيا، المركز الرئيس عدن، اليمن. يمكن إعادة استخدام المادة المنشورة حسب رخصة مؤسسة المشاع الإبداعي شريطة الاستشهاد بالمؤلف والمجلة.

[1] قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب ، جامعة بيرزيت ، رام الله- فلسطين

* عنوان المراسلة: khharb83@gmail.com

ألوان الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبَّاني: دراسة نقدية

الملخص:

انصبَّ اهتمام الدراسة على تحليل مراثي الشاعر نزار قبَّاني؛ للوصول إلى إجابةٍ شافيةٍ لإشكالية الدراسة، والمتمثلة بمواطن تجلي الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبَّاني، في مجموعةٍ من قصائد الرِّثاء التي كتبها، وكانت محملة بالدلالات الملبية لتجربته الشِّعرية والشعورية، وغطَّتها ملامح الحُزن، فحياة نزار قبَّاني مكتظة بالأزمات والحوادث المأساوية، وشاعرٌ بموهبته الشعرية الرومانسية الحالمة، تؤثر عليه الأزمات أيما تأثير.

وُسِمتِ الدراسة بـ"ألوان الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبَّاني؛ قراءة نقدية"، مشتملة مقدمةً ومحورَيْن وخاتمة، عرَضت المقدمة محاور الدراسة وأفكارها، والدافع منها، والمنهج المتَّبع؛ للوصول إلى النتائج. أمَّا المحور الأول بدأ بتوطئةٍ تاريخيةٍ عن الرِّثاء، شملت: مدخلًا، ومفهوم الرِّثاء، ونماذج من الرِّثاء قديمًا، وتعريفًا بالشاعر، من حيث: مولده، ونشأته، وشعره، ومكانته. فيما أفردَ المحور الثاني لدراسة وتحليل أشهر قصائد المراثي في شعر قبَّاني؛ للوقوف على ألوان الحُزن والرِّثاء في شعره. أما الخاتمة، فتضمّنتِ الإجابة عن سؤال الدّراسة، إذ واجه الموت الحقيقي (موت أبيه، وأمه، وزوجته، وابنه، وزعيمه) بـ: الرفض والإنكار، وانعدام الأمن والأمان، والعجز والانكسار، والحقد والغضب. والموت في قصائد قبَّاني غير مقتصرٍ على الموت الحقيقي، فقد تعدَّدت محاوره في شعره بين قصائد الحب، وقصائد المرأة العربية أثناء سعيها لنيل حريتها، وكسر صمتها، وقصائد الشارع العربي المحملة بموضوعات الجهل، والفقر، والخيانة، والاستبداد.

الكلمات المفتاحية: نزار قبَّاني، شعر الرِّثاء، شعر الحُزن، نقد الشعر.

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

The Colors of Sorrow and Elegy in the Poetry of Nizar Qabbani: A Critical Study

Abstract:
This study analyzes the elegies of Nizar Qabbani to answer its main question: where do sadness and lamentation appear in his poetry? It examines a wide range of his elegies, rich in connotations and allusions that reflect his poetic and emotional experience. Qabbani's life was marked by crises and tragic events, and his romantic, sensitive nature deeply shaped his expression of sorrow.
Entitled *"Colors of Sadness and Lamentation in the Poetry of Nizar Qabbani: A Critical Reading,"* the study consists of an introduction, two sections, and a conclusion. The introduction outlines the topic, significance, and methodology. The first section presents a historical overview of elegy, its concept, examples, and a brief biography of the poet, including his upbringing, literary status, and achievements. The second section analyzes his most prominent elegies to identify patterns of sadness and lamentation.
The study concludes that Qabbani confronted real loss—the deaths of close family members and leaders—with denial, insecurity, helplessness, and anger. However, death in his poetry extends beyond literal loss to include themes of love, women's struggles, and the realities of Arab society, such as poverty, oppression, and betrayal.
Keywords: Nizar Qabbani, elegy poetry, sad poetry, poetry criticism.

[1] Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Birzeit University, Ramallah–Palestine
* Corresponding Email Addresskhharb83@gmail.com

المُقَدَّمَةُ:

يُعدُّ الرِّثاء من أقدم أغراض الشعر العربي، فمنذ انبلاج فجره، رافقه كخيوط الشمس، بل يُعدُّ- من وجهة نظر الباحث- من أقدس الموضوعات التي كُتِب فيها؛ كونه وجهًا للوفاء، وتعبيرًا عن الإخلاص للمتوفّى، ففيه يفرغ الأديب خالص مشاعره، وأصدقها، باعتباره نوعًا من ردِّ الجميل، وصون المعروف، لمن كانوا - يومًا- الأمن والأمان.

ولعل مِن أهم الدوافع لخوض هذه الدراسة، قرب الرِّثاء من النفس، فهو ابن العاطفة والوجدان، وبعيدٌ عن التكلُّف والرِّياء والنفاق. أيضًا فيه تهذيب للنفس، وحدٌّ من جموحها؛ بتذكر ما ستؤول إليه. ولا يَقِلُّ أهمية، وقوف الرِّثاء على تفاصيلَ دقيقةٍ في حياة مَن فقدنا، وتخليدها عبر ثنايا الروح، وصفحات الزمن.

في هذه الدراسة، لا أكاد أذكر أنني واجهتُ عقباتٍ أو مصاعب، سوى الجهد الذهني المضاعف، في تحليل وتفسير مراثي قبّاني، وسبر غورها؛ للوقوف عند إجابة شافية لسؤال الدراسة:

"كيف تجلّى الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبّاني؟"

كما تجلّت أهم العوامل المساعدة لإنجاز هذه الدراسة، في الشغف، وحبِّ الاستزادة والاطلاع، مضاف إليهما وفرة المراجع وسهولة الوصول إليها، أهمها: أعمال الشاعر الكاملة: السياسية والعادية، ودواوينه، وكتبه النثرية، خاصةً قصتي مع الشعر، وكذلك كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق، وغيرها كثير.

لقد جاءت هذه الدراسة، الموسومة بـ "ألوان الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبّاني: قراءة نقدية" بمقدمةٍ، ومحورين، وخاتمة. إذ جاء الأول منهما، بتقديم توطئةٍ تاريخيةٍ عن الرِّثاء، شملت: مدخلاً، ومفهوم الرِّثاء، ونماذج من الرِّثاء قديمًا، وتعريف بالشاعر، من حيث: مولده، ونشأته، وشعره، ومكانته، وأهم الأوسمة والجوائز التي حازها.

فيما أفردَت صفحاتُ المحور الثاني، لدراسة وتحليل أشهر قصائد المراثي في شعر قبّاني؛ للوقوف على ألوان الحُزن والرِّثاء في شعره. لتأتي الخاتمة، متضمنة الإجابة عن سؤال الدراسة، وأهم النتائج التي توصّلت إليها.

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

وإن نسيتُ، أو أخطأتُ، فعذري بأنّي نسيتُ، ولله الكمال وحده.

المحور الأول:

إنّه الموت، أو اللحظة المؤجلة، التي يؤمِّل الإنسان نفسه ببُعده عنها، وبُعدها عنه، الذي يوقف البدايات، ويضع للأشياء نهاياتها، ومن ضمنها الإنسان، اللحظة المؤجلة التي تؤرِّق كلَّ حيٍّ، وتقضُّ مضجعه، وتشغل فكره، فراح يلتف بالكلمات عليها تارةً، وتارةً بالفلسفة، وأخرى بالاستسلام، وتعدَّدت طرق الإنسان، ومذاهبه، في التخفيف من وطأة هذه اللحظة، وثقلها.

نعم، لقد سعى الإنسان حثيثًا؛ للتغلب- ولو معنويًا- على لحظة الموت والفناء، حبًّا منه في الخلود والبقاء، لكن دون جدوى أو فائدةٍ تذكر، ما دفعه لامتطاء صهوة الرِّثاء؛ تخفيفًا وتهوينًا ومواساةً لنفسه أولاً، ولمَن حوله ثانيًا. فما الذي يعنيه الرِّثاء؟ وما الخلود الذي يُقدِّمه للإنسان؛ فتسكن نفسه ولو برهة؟

مفهوم الرِّثاء:

الرِّثاء لغةً مِن رثى رثيًا ورثاءً ورثايةً ومرثأةً ومرثية، وهو اختلاط صوت البكاء مع الكلام على الميت. وقد يكون بكلمةٍ، أو بقصيدة[١].

ورثى فلانٌ فلانًا يرثيه رثيًا ومرثية، إذا بكاه بعد موته. قال فإنّ مدحه بعد موته قيل رثاه ويرثِيه ترثية، ورثيت الميت رثيًا ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته. ورثوت الميت أيضًا إذا بكيته، وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمتُ فيه شعرًا[٢].

الرِّثاء اصطلاحًا: هو أحد موضوعات الأدب العربي: النثر والشعر، وعُرف أيضًا بالتأبين، وهو الثناء على الشخص بعد موته، وتعداد مآثره، والتعبير عن الفجيعة فيه[٣].

---

[١] أنيس، إبراهيم، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد، ***المعجم الوسيط***، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢، ص (٣٥٣).

[٢] ابن منظور، ***لسان العرب***، تحقيق عبد الله الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وسيد رمضان أحمد، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ج٦، ص (١١٢).

[٣] عتيق، عبد العزيز، ***الأدب العربي في الأندلس***، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص (١٩٤).

ولم يكن من أخلاق العرب قديماً، رثاء قتلى الحرب؛ لأنهم ما ذهبوا إلا ليُقتلوا، وإذا ما بكوهم كان بمنزلة الهجاء لهم، لكنهم بيّنوا أحقية الرِّثاء لمَن مات حتف أنفه، أو المقتول بغير حرب، كالغارة مثلاً، فيعددون المآثر ويبالغون في الفجيعة؛ لأنَّ هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت[٤].

مما سبق، نستنتج أنَّ الرِّثاء هو ذكر محاسن الميت، والبكاء عليه، وإظهار مدى فجيعتهم فيه، وأنه لا فرق بينه وبين المديح، إلا بذكر الأديب، ما يدلّل على أنَّ الميت قد مات، وأنَّ هذا الإنسان هالك.

والشعر العربي، ضاج بهذا الموضوع، وحبل الرِّثاء فيه لا ينقطع، بل موصولٌ بدمع العين العربية، منذ أن تفتّحت قريحتها، وعرفت قرظ الشعر.

نماذج من الرِّثاء في الشِّعر العربيّ القديم:

والرِّثاء قديمٌ قدم الشعر في الأدب العربي، فها هو ذو القروح، أو ابن آكل المرار، امرؤ القيس بن حُجر، يثقله أبوه بثأره، فيقول في ذلك: "ضيعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً. لا صحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر وغداً أمر"[٥]. ثمّ قال:

خليلي لا في اليوم مصحى لشارب ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب[٦].

ومقالٌ آخر يقول فيه: "الخمر عليَّ والنساء حرام، حتى أقتل من بني أسد مائة وأجُرّ نواصي مائة"[٧]. ثم يقول في ذلك:

---

[٤] عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص (١٩٥).

[٥] الأصفهاني، أبو فرج (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)، ***الأغاني***، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢، ج٩، ص (٦٦).

[٦] امرؤ القيس، ابن حُجر الكندي (٥٦٥م)، ***ديوان امرئ القيس***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص (٣٤٢).

[٧] الأصفهاني، الأغاني، ص (٦٦).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

أرقتُ ولم يأرق لما بي نافع وهاج لي الشوقَ الهمومُ الروادعُ[٨].

ويقول في موضع آخر:

" عجبتُ لبرقٍ بليلٍ أهلّ يضيءُ سناه بأعلى الجبل

أتاني حديثٌ فكذّبته وأمرٌ تزعزع منه القلل

لقتل بني أسد ربّها ألا كلُّ شيءٍ سواه جلل

فأينَ ربيعةُ عن ربهم وأينَ تميمٌ وأينَ الخول "[٩].

بينما هو كذلك، في طلب ثأر أبيه، مستنصرًا قبيلةً تلو أخرى، حتى استقرَّ به الحال لدى قيصر، فأجاره واستعدَّ بأخذ ثأر أبيه من بني أسد؛ إلى أن وشى به للقيصر رجلٌ من بني أسد، يُدعى الطماح، كان امرؤ القيس قد قتل أخًا له. فألبسه القيصر حلةً مسمومة، فأيقن أنَّه هالك. فأخذَ يرثي نفسه:

" أجارتنا إنَّ المزار قريب وإنِّي مقيمٌ ما أقام عسيب

أجارتنا إنَّا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب"[١٠].

والزير سالم أيضًا يرثي أخاه وائلًا "كليبًا" ويبكيه، يقول:

" أليلتنا بذي حُسُم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فإن يكُ بالذّنائب طالَ ليلي فقد أبكي من الليل القصير"[١١].

ويكمل، متوعداً خصومه:

---

[٨] هذا البيت وردَ في الديوان في ملحق بالشعر المنسوب لامرئ القيس مما لم يرد في أصول الديوان المخطوط، وذلك بالإشارة إلى كتاب الأغاني سالف الذكر.

[٩] امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ص (٢٦١).

[١٠] المرجع السابق، ص (٣٥٧).

[١١] ابن ربيعة، مهلهل (ت٩٤ق.هـ/٥٣١م)، ***ديوان مهلهل بن ربيعة***، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ١٩٩٣، ص (38).

" قتيل ما قتيل المرء عمرو وجساس بن مرة ذو ضرير

ولولا الريح أسمعُ مَن بحجرٍ صليلَ البيض تقرع بالذكور

غداة كأننا وبني أبينا بجنب عُنيزة رحيا مدير "[١٢].

ويقول في موضع آخر:

" أزجر العين أن تبَكّي الطلولا إنّ في الصدر من كليب غليلا

إنّ في الصدر حاجة لن تقضّى ما دعا في الغصون داع هديلا

كيف أنساك يا كليب ولمّا أقض حزنا ينوبني وغليلا "[١٣].

وفي موطنٍ آخر يقول:

" وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار

وتمنع أن يمسهم لسان مخافة من يجير ولا يجار "[١٤].

ومن منّا لم يسمع بكاء الخنساء، أخويها: معاوية وصخر. حيث تقول رثاءً للأول:

" ألا ما لعينيك أم ما لها لقد أخضل الدمع سربالها

أبعد ابن عمرو من آل الشّري د حلت به الأرض أثقالها

فإن تكُ مرّة أودت به فقد كان يكثر تقتالها "[١٥].

وفي صخرٍ أخيها قالت:

"قذى بعينيك أم بالعين عُوّار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

---

[١٢] مهلهل ابن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، ص (٤٠-٤١-٤٢).

[١٣] مهلهل ابن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، ص (٦٢).

[١٤] مهلهل ابن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، ص (٣٢).

[١٥] الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث (ت٢٤هـ/٦٥٤م)، ***ديوان الخنساء***، شرح حمدو طمّاس، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤، ص (٩-١٠٠).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

تبكي لصخر، هي العبرى وقد ثكلت ودونه من جديد الترب أستار

فإنَّ صخراً لوالينا وسيدنا وإنَّ صخراً إذا نشتوا لنحَّار

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداة به كأنَّه علمٌ في رأسه نار"[١٦].

ولا ننسى أبياتها الشهيرة، التي تعلمناها صغارًا في رثائه:

" أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا

طويل النِّجاد، رفيع العما د ساد عشيرته أمردا

وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثمّ ارتدى "[١٧].

وها هو جرير يفوق أقرانه، وشعراء عصره، في هذه الأبيات التي يرثي فيها زوجه:

" لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزارُ

لا يلبث القرناء أن يتفرّقوا ليلٌ يكرّ عليهم ونهارُ

كانت إذا هجر الحليل فراشها كُتم الحديث وعَفّتِ الأسرارُ"[١٨].

ورثاؤه لابنه سوادة:

"قالوا: نصيبك من أجر، فقلت لهم: من للعرين إذا فارقت أشبالي؟

لكن سوادةَ يجلو مقلتيّ لحم بازٍ يُصرصر فوق المَرْقب العالي

إلّا تكن لك بالدَّيْرَيْن باكيةٌ فربّ باكيةٍ بالرمل معوالِ

---

[١٦] الخنساء، ديوان الخنساء، ص (٤٥-٤٦).

[١٧] الخنساء، ديوان الخنساء، ص (٣١).

[١٨] جرير، ابن عطية الخطفي (ت١١٤هـ/٧٣٢م)، ***ديوان جرير***، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦، ص (١٥٤-١٥٥-١٥٦).

فارقتني حين كفّ الدهرُ من بصري وحين صرتُ كعظم الرمة البالي"[١٩].

وحين يأتي نبأ وفاة الفرزدق، ينشد راثيا إياه:

" فلا حملت بعد الفرزدق حرّةٌ ولا ذاتُ حمل من نفاس تعلّتِ

هو الوافد المجبور والحامل الذي إذا النعل يومًا بالعشيرة زلّتِ"[٢٠].

وحبل الرِّثاء طويل باقٍ، بقاء البشـــرية فوق هذه الأرض. فها هو المتنبي يطالعنا في مرثية لجدته قائلا:

" وما انسدت الدنيا عليّ لضيقها ولكن طرفا لا أراك به أعمى

فوا أسفا ألّا أكبّ مقبلا لرأسك والصدر الذي ملئا حزما

وألّا ألاقي روحك الطيب الذي كأنّ ذكي المسك كان له جسما"[٢١].

ولم يقتصـر الشـعراء على رثاء الآخرين- أقرائهم أو أصـدقائهم- بل هناك كثر منهم رثوا أنفسهم، نورد- على سبيل المثال لا الحصر- رثاء أبي فراس الحمداني لنفسه:

"أبنيتي، لا تجزعي! كلّ الأنام إلى ذهاب

أبنيتي، صبرا جمي لا للجليل من المصاب

نوحي عليّ بحسرة! من خلف سترك والحجاب

قولي إذا ناديتني، وعييتُ عن ردّ الجواب

زين الشباب، أبو فرا سٍ، لم يمتع بالشباب!"[٢٢].

---

[١٩] جرير، ديوان جرير، ص (٣٤٥).

[٢٠] جرير، ديوان جرير، ص (٧٢).

[٢١] المعري، أبو العلاء (ت٤٤٩هـ/١٠٧٥م)، ***شرح ديوان أبي الطيب المتنبي***، تحقيق عبد المجيد دياب، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢، ج٢، ص (٢٦٣-٢٦٤).

[٢٢] الحمداني، أبو فراس (ت٣٥٧هـ/٩٦٨م)، ***شرح ديوان أبي فراس الحمداني***، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩، ص (٢٣٥).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

وتعريجاً على الشعر الأندلسي، خاصةً الرِّثاء منه، لا نجد أصدق قولاً من رثاء المعتمد بن عبّاد لنفسه. حيث يقول:

"قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشلاء ابن عبّاد
بالحلم بالعلم بالنّعمى إذ اتصلت بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن، الضارب، الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر، بالضرغامة العادي
نعم هو الحق، وافاني به قدر من السماء فوافاني لميعاد
فلا تزل صلوات اللّه دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد"[٢٣].

ولم يودع النصر المعتمد بن عبّاد وحده، بل ودّع الأندلس كاملة؛ مما هيّج شعراءها، وأبكاهم جميعاً على فردوسهم المفقودة، وخير مثالٍ نضربه هنا، نونية أبي البقاء الرنديّ الذي يقول في مطلعها:

"لكل شيءٍ إذا ما تمّ نقصانُ فلا يغرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور- كما شاهدتها- دول مَن سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ"[٢٤].

ويكمل:

"دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وانهدّ ثهلانُ
فاسأل بلنسية: ما شأن مُرسية؟ وأين شاطبة أم أين جيّانُ؟
وأين قرطبة دار العلوم، فكم مِن عالمٍ قد سما فيها له شانُ؟

---

[٢٣] ابن عبّاد، المعتمد (ت٤٤٨هـ/١٠٥٩م)، ***ديوان المعتمد بن عبّاد***، تحقيق حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، ط٣، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص (٩٦).

[٢٤] المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)، ***أزهار الرياض في أخبار عياض***، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩، ج١، ص (٤٧).

أين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن؟"[٢٥].

ويلتاع أبو البقاء الرندي، على ما حلّ بها، فيبكيها على لسان الشريعة:

" تبكي الحنيفيّة البضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ "[٢٦].

ويختم رثاءه بهذا البيت المذيب ألماً وحزنًا:

"لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إنْ كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ!"[٢٧].

فيما سبق، من نماذج المراثي العربية القديمة، يلحظ الباحث أنَّ العربيّ صبَّ فيها خالص حزنه ووجعه، وأفرغ فوق صفحاتها حمم غضبه الملتهبة، وأمدَّ ذكرَه، وذكر مَن يرثيه، خالداً في ثنايا الزمن والتاريخ، فبرثاء كليب عاش الزير، وخاض حروبه طوال أربعين سنة، وكذلك ذو القروح، صال أقطار الجزيرة طالبًا ثأر أبيه، والشعر ينثال منه انثيالاً، ودواليك في بقية النماذج المدروسة.

وحديثًا، لم يبتعد الحُزن عن مآق العرب، ولم تجف أعينهم إثر رثاء الأحبة، وبكائهم الظاعنين عنهم، وكتبهم ضاجّة صارخة، بأوجاعهم وآهاتهم وأنّاتهم، إذ إنَّ فيها من المراثي ما يلامس شغاف القلب، ويذيب المهج حزنًا وكمداً. كمرثيات أحمد شوقي لوالده، ولشيخ المجاهدين عمر المختار، ورثاء أحمد مطر لصديقه الشهيد الفنان ناجي العلي، ورثاء محمود درويش لنزار قبّاني، ورثاء مدينة القدس، ومدن العراق، وغيرها.

ومن نماذج الرِّثاء في الشعر العربي الحديث، تناولت هذه الدراسة، مراثي نزار قبّاني لذوي القربى: أبيه، وأمه، وابنه، وزوجه بلقيس، كما عرضت لرثائه الزعيم جمال عبد الناصر، استجلاءً لصور الحُزن فيها، واستظهاراً لأشكالها، وسبراً لمكنونها، وكشفًا لكُنهها. لكن، قبل هذا كله، مَن هو نزار قبّاني؟ وما مكانته؟

---

[٢٥] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ص (٤٨).
[٢٦] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ص (٤٨).
[٢٧] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ص (٥٠).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

مولد الشاعر نزار قبَّاني، ونشأته:

هو نزار توفيق قبَّاني، ولد في حي مئذنة الشحم بدمشق، في الحادي والعشرين من شهر الخصب- شهر آذار- سنة (١٩٢٣). وعن هذا يقول:

"كانت الأرض هي الأخرى في حالة ولادة.. وكان الربيع يستعد لفتح حقائبه الخضراء.

الأرض وأمي حملتا في وقتٍ واحد.. ووضعتا في وقتٍ واحد" [٢٨].

وينحدر قبَّاني من أسرة دمشقية عريقة، متوسطة الحال، فوالده توفيق كان يمتلك مصنعًا للحلوى، من ناحية ومن ناحيةٍ أخرى، كان يشارك في أعمال المقاومة ضد الانتداب الفرنسي على سوريا: "أسرتنا من الأسر الدمشقية المتوسطة الحال، لم يكن أبي غنيًا ولم يجمع الثروة" [٢٩].

لقد كانت أولى مدارس نزار، هي الكلية العلمية الوطنية بدمشق، حيث تلقَّى دراسته الابتدائية والثانوية [٣٠]**. ليتخرَّج في كلية الحقوق في الجامعة السورية عام (١٩٤٥)، غير أنَّه لم يمارس المحاماة، وإنَّما انضم فور تخرُّجه إلى السلك الدبلوماسي السوري، وبقي فيه لـ(٢١) عامًا، حتى استقال من وزارة الخارجية عام (١٩٦٦)، وتفرَّغ لكتابة الشعر، وأسَّس دار نشر باسمه في بيروت** [٣١].

تزوج قبَّاني بزهرة، وبلقيس، الأولى سورية، أنجبت له: هدباء، وتوفيق، وزهراء، وقد توفي ابنه توفيق في سنٍّ صغيرةٍ في القاهرة؛ ليرثيه بقصيدة "الأمير الحَرافي توفيق قبَّاني". وزواجه الثاني، كان من بلقيس الرَّاوي، عراقية الجنسية، التي أنجبت له: زينب، وعمر، قبل أن تقتل في انفجار سفارة بلدها ببيروت عام (١٩٨٢) [٣٢].

---

[٢٨] قبَّاني، نزار، ***قصتي مع الشعر***، ط٧، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، ١٩٨٦، ص (٢٥).

[٢٩] نزار قبَّاني، قصتي مع الشعر، ص (٢٨).

[٣٠] نزار قبَّاني، قصتي مع الشعر، ص (٤١).

[٣١] نزار قبَّاني، قصتي مع الشعر، ص (٦٦). ويُنظر: السلوم، محمد الزينو، ***أعمال الشاعر نزار قبَّاني بين قوسي قزح***، موقع مكتبة نور: https://www.noor-book.com/. ج١، ص (٢٠-٢١).

[٣٢] محمد السلوم، أعمال الشاعر نزار قبَّاني بين قوسي قزح، ج١، ص (٢٠).

بعد مقتل زوجته بلقيس، ترك بيروت، وتنقَّل بين عواصم العالم: باريس، وجنيف، ولندن التي قضى ما تبقَّى من سنيّ عمره الممتد عبر صفحات سبعة عقود ونصف العقد، حيث وافته المنيَّة فيها، في الثلاثين من نيسان، لعام ثمانية وتسعين وتسعمئة وألف، ووُري الثَّرى إلى جانب ابنه توفيق[٣٣].

شعره ونثره:

يقول قبَّاني: "أنا من أمَّةٍ تتنفَّس الشعر، وتتمشَّط به، وترتديه، كل الأطفال عندنا يولدون وفي حليبهم دسم الشعر، وكل شباب بلادي يكتبون رسائل حبهم الأولى شعراً.." [٣٤].

إذن، فشاعريَّة قبَّاني ليست مصادفة، بل تراكماتٍ تاريخية، أثارت قريحته؛ حتى تفجَّرت في سنٍّ صغيرة: "إنني عندما أكتب، أخضع لكل قوانين الوراثة والسلالة، وأنفِّذ أوامر التاريخ.." [٣٥].

ولقد تعدَّدت موضوعاته الشعرية: الغزل بنوعيه: العذري والصريح. وموضوع السياسة، حيث هاجم فيه أنظمة الحكم العربية، وثار على شعوبها [٣٦]. وكذلك موضوع الرِّثاء، الذي سنُفرد له ما تبقَّى من صفحات المقال، ومن أعماله الشعرية دواوين: قالت لي السمراء، طفولة نهد، سامبا، أنت لي، قصائد من نزار قبَّاني، حبيبتي، الشعر قنديل أخضر، رسائل من تحت الماء، يوميات امرأة لا مُبالية، قصائد متوحشة، كتاب الحُب، الأشعار الخارجة عن القانون، إلى بيروت الأنثى مع حبي، سورية حبيبتي، كان يا ما كان، أحبك أحبك والبقية تأتي، الحُب لا يقف عن الضوء الأحمر، سيبقى الحُب سيدي، دمشق نزار قبَّاني، ثلاثية أطفال الحجارة، الأوراق السريَّة لعاشق قرمطي، السيرة الذاتية لسيَّاف عربي، قصائد مغضوبٌ عليها، تزوجتك أيتها الحرية، الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق، هوامش على الهوامش [٣٧].

---

[٣٣] محمد السلوم، أعمال الشاعر نزار قبَّاني بين قوسي قزح، ج١، ص (٢٢).

[٣٤] نزار قبَّاني، قصتي مع الشعر، ص (١٤).

[٣٥] نزار قبَّاني، قصتي مع الشعر، ص١٤.

[٣٦] محمد السلوم، أعمال الشاعر نزار قبَّاني بين قوسي قزح، ج١، ص (٢٠).

[٣٧] انظر فهارس؛ قباني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، منشورات نزار قبَّاني، بيروت؛ قبَّاني، نزار، ***الأعمال السياسية الكاملة***، منشورات نزار قبَّاني، بيروت.

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

وأمَّا عن أعماله النثرية، فقد جاء تحت عناوين، منها: الشعر قنديل أخضر، قصتي مع الشعر، عن الشعر والجنس والثورة، المرأة في شعري وفي حياتي، ما هو الشعر، العصافير لا تطلب تأشيرة دخول، لعبت بإتقان وهي هي مفاتيحي، جمهورية جنونستان (مسرحية) [٣٨].

مكانته وأهم الأوسمة:

لقد تبوّأ قبّاني- بما كتب- مكانةً عليّة، في أوساط الأدب العربي والعالمي. وما الجوائز التي تأتت له في مسيرته إلا خير شاهدٍ على علوِّ كعبه ومقامه. ولم يحدث لشاعرٍ عربي معاصرٍ أن أخذت قصائده هذه الشهرة والحرية في التنقُّل ما بين الأقطار والأمصار كما حدث لقصائد قبّاني [٣٩].

ويتجلّى تكريم قبّاني في ترجمة أعماله إلى لغاتٍ عديدة: الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، وقد توِّجت هذه الإشادة بأوسمةٍ وجوائز، منها: وسام الاستحقاق الثقافي الإسباني في مدريد، وجائزة جُبران العالمية في سيدني أستراليا، وميدالية التقدير الثقافي البلجيكي، ووسام الغار من النادي السوري الأميركي بواشنطن، وجائزة سلطان بن علي العويس للإنجاز العلمي والثقافي، وكذلك عضوية الشرف في جمعية خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت[٤٠].

المحور الثاني:

في هذا المحور من الدراسة، يسلط الباحث الضّوء على أهمِّ قصائد الرِّثاء في شعر نزار قبّاني، حيث يتناولها بالتحليل والتفسير، والإبانة لما بين سطورها؛ استظهارًا لمعانيها الكامنة، واستنباطًا لصور الحُزن والرِّثاء فيها، واستنطاقًا لها؛ حتى تتحرَّر من إطارها، وتبوحَ بما تقاسيه وتلقاه جرَّاء الكبت والأسْر خلف المعنى الظاهر البيِّن.

---

[٣٨] انظر فهارس؛ قبّاني، نزار، ***الأعمال النثرية الكاملة***، منشورات نزار قبّاني، بيروت.

[٣٩] محمد السلوم، أعمال الشاعر نزار قبّاني بين قوسي قزح، ج١، ص (١٨).

[٤٠] محمد السلوم، أعمال الشاعر نزار قبّاني بين قوسي قزح، ج١، ص (١٦).

أوّلاً: رثاء قبّاني لوالده:

الموت يعني الغياب؛ لذ لك، رفض قبّاني فكرة موت أبيه، وفكرة غيا به، ويَعدُّ ها إ ها نةً لشخصه:

"أمات أبوك؟

ضلال! أنا لا يموت أبي"(٤١).

وفي موطنٍ آخر، يجهر بصوته أنّ أباه ما زال هنا:

"هنا ركنه.. تلك أشياؤه

تفتق عن ألف غصن صبي"(٤٢).

ويسترسل في تعداد صفاته، وخصاله؛ تأكيداً على حضوره:

"يسامرنا، فالد والي الحبالى

توالد من ثغره الطيب"(٤٣).

وهو خبرٌ من جنّة:

"أبي، خبراً كان مِن جنّة

ومعنى من الأرحب الأرحب"(٤٤).

وعيناه مأوى النجوم:

"وعينا أبي ملجأً للنجوم

---

(٤١) قبّاني، نزار، ***ديوان قصائد***، ط٢٥، منشورات نزار قبّاني، بيروت، ١٩٨١، ص (٥٣).

(٤٢) نزار قبّاني، ديوان قصائد، ص (٥٣).

(٤٣) نزار قبّاني، ديوان قصائد، ص (٥٤).

(٤٤) نزار قبّاني، ديوان قصائد، ص (٥٤).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

فهل يذكر الشرق عيني أبي؟" [٤٥].

والشاعر لا يفقد أمل عودة أبيه، فيفتح لتموز أبواب منزلهم، مستقبلًا أباه صيفًا:

"فتحنا لتموز أبوابنا

ففي الصيف، لا بدَّ، يأتي أبي" [٤٦].

إذن، في هذه القصيدة، قصيدة "أبي"، الشاعر لا يعترف بموت أبيه، فكل ما فيها يُدلِّل على بقائه: الصفات الشخصية، أشياؤه، والصفات الوراثية المنتقلة للابن. وكذلك لغة القصيدة، فالفعل المضارع حاضر: أجول، أشد، أميل، أصلي، يشرب، يزل، يسامرنا، أشيلك، يأتي، ....، كلها أفعالٌ دالةٌ على حيوية الأب في حياة أبنائه وأسرته، سواءً داخل البيت أم خارجه، فهو باقٍ لا يغيب.

وما الأساليب إلا مساندة للفعل المضارع، في إثبات الحضور الدائم، فجاء النفي إثباتًا: لا يموت، لم يذهب، لم يشرب، لم يزل، لا زلت. وما الاستفهام بأقل رُتبةً في ذلك: أمات أبوك؟ أيسلو الزجاج؟ فهل يذكر الشرق عيني أبي؟

في هذه القصيدة، كمٌّ كبيرٌ من الاستنكار، والرفض، لرحيل الأب؛ لأنه المرآة في هذه الحياة التي يعبُر من خلالها الشاعر للدنيا، وهو الأمان فيها والأمن.

مع الرفض والإنكار اللذين جابهناهما في قصيدة "أبي"، لحقيقة موت والده، إلا أنَّه عاد في "خمس رسائل إلى أمِّه"، ليذكر والده، بعد إقراره صراحةً بموته:

"ومات أبي..

ولا زالت تعيش بحلم عودته

وتبحث عنه في أرجاء غرفته" [٤٧].

---

[٤٥] نزار قبَّاني، ديوان قصائد، ص (٥٤).

[٤٦] نزار قبَّاني، ديوان قصائد، ص (٥٤).

[٤٧] قبَّاني، نزار، ***الرسم بالكلمات***، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، (دت)، ص (٣٦-٣٧).

ويطالب أمَّه بأن تستوصي بفلته خيرًا:

"ما أخبارها الفلة؟

بها أوصيك يا أماه

تلك الطفلة الطفلة

فقد كانت أحبُّ حبيبةٍ لأبي"[٤٨].

وفي حيرة، يسأل أمَّه عن غياب والده، وكيف أتى أيلول، ولم يأتِ، قبل أن يسلم لحقيقة موته ويترحَّم على قبره:

"أتى أيلول.. أين دمشق؟

أين أبي وعيناه؟

وأين حرير نظرته وأين عبير قهوته؟

سقى الرحمن مثواه" [٤٩].

ونلحظ في "خمس رسائل إلى أمِّي" أمرين: اعترافه بموت والده، الذي جعله على لسان أمِّه بتفقدها أشياء أبيه، وافتقادها له، فيما تمسك هو بالرفض والمكابرة لموته حتى النهاية؛ وكأنَّ موت الأب مساسٌ بشخصيته وكرامته ووجوده.

ثانيًا: رثاء قبَّاني لأمّه:

لم تكن أم الشاعر قبَّاني "فائزة"، في نظره عادية، بل كانت الحبل السري الذي يتغذى منه، وكانت نقطة الارتكاز في تعامله مع نسائه، فمَن وافقت صفاتها صفات أمِّه؛ فازت به وبحبِّه[٥٠].

---

[٤٨] نزار قبَّاني، الرسم بالكلمات، ص (٣٦).

[٤٩] نزار قبَّاني، الرسم بالكلمات، ص (٣٨).

[٥٠] حيدوش، أحمد، *شعرية المرأة وأنوثة القصيدة*، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص (٩٦).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

ويقول قبّاني عن أمّه: "أمّا أمّي فكانت ينبوع عاطفة بغير حساب، كانت تعتبرني ولدها المفضل، وتخصّني دون سائر إخوتي بالطيبات..." [٥١].

وفي موطنٍ آخر، يقول: "أمّي كانت- ولا زالت- هي السيدة الأولى في حياتي" [٥٢].

يقول عن لحظة تلقّيه خبر وفاة أمّه:

"عندما كانت بيروت تموت بين ذراعي

كسمكة اخترقها رمح

جاءني هاتفٌ من دمشق يقول:

"أمُّك ماتت"

لم أستوعب الكلمات في البداية

لم أستوعب كيف يمكن أن يموت السمك كله في وقتٍ واحد.." [٥٣].

فرحيل أمّه، كان استثنائيًا، غير متوقع، فهو ما زال بحاجتها لضمد جراحه.

وبموتها، لم يبكها وحده، بل شاركته عناصر الطبيعة كلها:

"رحمة اللّه على أمّي

فقد كانت تحبُّ الشام، والماء،

وزهر الياسمين.

ثمّ.. لمّا رحلت

بكت الشام عليها

---

[٥١] حيدوش، شعرية المرأة أنوثة القصيدة، ص (٩٧).

[٥٢] حيدوش، شعرية المرأة أنوثة القصيدة، ص (٩٧).

[٥٣] قبّاني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، ط٢، منشورات نزار قبّاني، بيروت، ١٩٩٨، ج٤، ص (٤٣).

واستقالت بعدها أنهر الشام جميعاً

وشتول الياسمين" [٥٤].

فاليأس والاستسلام يسيطران على هذا المقطع: فقد كانت، رحلت، بكت، استقالت.

وما أن يذكر اسمها، حتى تهيج عاطفته، ويتبدَّل حاله:

"اسمها في فمي.. بكاء النوافير

رحيل الشذا.. حقول الشقيق

حزمة من توجع الرصد.. رفّ

من سنونو يهمّ بالتحليق" [٥٥].

وفي هذا المقطع تتَّضح لنا كمية اللين والكلام المهموس والبيني، وكأنَّه في حضرة قديسة، بل وأعظم.

وكذلك رحيلها، هو رحيل كلِّ جميلٍ من حوله: الشذا، الشقيق أو شقائق النعمان، السنونو.

بل جعل موتها يعادل موت جميع المدن العربية:

"كل مدينة عربية هي أمِّي.." [٥٦].

وإن كان نزار قد أحيا والده، بحمله بعضًا من صفاته، فبرحيل والدته، يفقد كل إحساسٍ بالأمان والدفء والطمأنينة والحنان:

"بموت أمِّي..

يسقط آخر قميص صوفٍ أغطِّي به جسدي

آخر قميص حنان..

---

[٥٤] قبَّاني، نزار، ***الأعمال السياسية الكاملة***، ط٢، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، ١٩٩٩، ج٦، ص (١٦٥).

[٥٥] قبَّاني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، ١٩٩٣، ج١، ص (٣٨).

[٥٦] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٤٣).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

آخر مظلة مطر..

وفي الشتاء القادم..

ستجدونني أتجوَّل في الشوارع عاريا" [٥٧].

فبهذا التيه كله، والضـــياع في عوالم الدنيا، لا يجد من يلجأ إليه، إلا أمه، التي تبدِّد- مع موتها- خوفه ووحشته:

"فيا أمِّي.. يا حبيبتي.. يا فائزة..

قولي للملائكة الذين كلفتهم بحراستي خمسين عاماً، أن

لا يتركوني..

لأني أخاف أن أنام وحدي.." [٥٨].

فحاجته لها بادية واضحة، عبر ارتكازه على أساليب: النداء إظهاراً للمحبة والتودد، والأمر للدعاء، والتعليل تفسيراً، كما حاجته لها مستمرة، باستمرار خوفه كلما داعب النُّعاس عينيه، أم مستهما سِنة.

ثالثاً: رثاء قبَّاني لابنه:

في قصـــيدة "إلى الأمير الدمشـــقي توفيق قبَّاني"، التي يرثي ابنه توفيق نزار، الذي توفي بمصـــر إثر مرض قلبي، يصـــف نزار حاله، والتياع قلبه، وكيف أصـــبح مكســـوراً، ومكبلاً، وخسر سلاحه المطواع، وهو اللغة:

"مكسورة كجفون أبيك هي الكلمات..

ومقصوصة كجناح أبيك، هي المفردات

فكيف يُغني المُغني وقد ملأ الدمع كل الدَّواة؟!

[٥٧] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٤٧).
[٥٨] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٤٨).

وماذا سأكتب يا بُني وموتك ألغى جميع اللغات" [٥٩].

في هذا المقطع يظهر عجز نزار، واستسلامه أمام هذه الفاجعة، فهو لا يعرف ماذا يفعل، وقد خانته اللغة والمفردات، وتكسَّرت حزنًا على أميره الدمشقي.

واجتمعت فاجعة الرحيل مع الغُربة؛ ما زاد حزنه وألمه:

"لأي سماءٍ نُمدُّ يدينا

ولا أحد في شوارع لندن يبكي علينا؟!

يهاجمنا الموت من كل صوبٍ

ويقطعنا مثل صفصافتين" [٦٠].

ويؤكد وحدته: "أواجه موتك وحدي وأجمع كل ثيابك وحدي" [٦١].

فالموت هنا وحشٌ مفترس، لا يرحم، ينشب أظفاره ويحاصرهما من كل جهاتهما.

ويبدأ نزار بالخروج من حالة الصدمة، إلى حالة التكذيب، فأميره لا يموت:

"أحاول ألا أصدق موتك، كل التقارير كذب

وكل كلام الأطباء كذب

وكل الأكاليل فوق ضريحك كذب" [٦٢].

وفي موطنٍ آخر، يقول:

"أحاول ألا أصدق أنَّ الأمير الخرافي توفيق مات

وأنَّ الجبين المسافر بين الكواكب مات

---

[٥٩] قبَّاني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، ٢٠١٦، ج٢، ص (٢٧٧).

[٦٠] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٢، ص (٢٧٧).

[٦١] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٢، ص (٢٧٨).

[٦٢] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٢، ص (٢٧٩).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

وأنَّ الذي كان يقطفُ من شجر الشمس مات

فموتك يا ولدي نكتةٌ وقد يصبح الموت أقسى النكات" [٦٣].

حيث نراه يواصل إنكار موته، ويرفضه، فكيف يكون ذلك، وتوفيق هو الأمير الذي لا شبيه له؟ كيف يموت وهو صاحب الجبين المرتفع شموخًا وإباءً وكبرياء؟ وكأنّه في هذه التساؤلات، أراد إبراز أمرين: الأول الموت يكون لأصحاب المراتب الدنيا، لا للأمراء الشامخين. والأمر الثاني، كان طبيعيًا معبرًا عن شدة انفعاله، وشدة تعلُّقه بولده، وتوهُّج عاطفته.

ويستمر قبَّاني في تصوير وحشية الموت، سيما الموت الذي يقهر الآباء بخطف أبنائهم:

"أتوفيق..

لو كان للموت طفلٌ لأدرك ما هو موت البنين

ولو كان للموت عقلٌ

سألناه كيف يفسِّر موت البلابل والياسمين

ولو كان للموت قلبٌ تردَّد في ذبح أولادنا الطيبين" [٦٤].

همجية الموت، ووحشيته، واضحةٌ في المقطع: لا طفل له، ولا عقل، ولا قلب. فهو مجردٌ من أية مشاعر وعواطف وإدراك؛ لذا، لا نراه إلا ظالمًا، يحرمُ الأب عناق ابنه، كما بيَّن لنا النداء: "أتوفيق".

ولو تأمَّلنا أسطر القصيدة، لوجدنا أثر الفعل المضارع واضحًا، ودلالاته ساطعة: يُغني، سأكتب، أشيلك، أواجه، أجمع، ألثم، أصرخ، أقاوم، سأخبركم، ....، حيث دلَّ على استمرارية ألم الشاعر وحزنه على فقد ابنه، كما بيَّن عجزه وافتقاره لفعل أي شيء، ودلالة الأمل في أن يكون الخبر كاذبًا: ترقب، ترجع، نراك. ولم يكتف قبَّاني باتكائه على

---

[٦٣] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٢، ص (٢٧٩).

[٦٤] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٢، ص (٢٨٠).

المضارع؛ لإظهار معاناته، بل ساندها بما اشتملته القصيدة من صورٍ فنية، أظهرت المبالغة في تقديم صورة الأب المكلوم بفقد ابنه، وشدة انكساره وعجزه، وشدة حزنه.

رابعًا: رثاء قبَّاني لزوجه:

تعدُّ قصيدة بلقيس، التي كتبها راثيًا زوجته التي استشهدت في تفجير السفارة العراقية ببيروت- من أشهر قصائد الرِّثاء حديثًا. ويبدؤها نزار بشكر يملأه الغضب والحقد على قاتليها:

"شكرًا لكم

شكرًا لكم

فحبيبتي قتلت وصار بوسعكم

أن تشربوا كأسًا على قبر الشهيدة" [٦٥].

وبموت بلقيس، يُعلن نزار موت شعره:

"وقصيدتي اغتيلت

وهل من أمَّةٍ في الأرض- إلا نحن- تغتال

القصيدة" [٦٦].

ثم يذكر صفاتها، وتفاصيلها الجميلة:

"بلقيس... كانت أجمل المَلِكات في تاريخ بابل

بلقيس... كانت أطول النخلات في أرض العراق

كانت إذا تمشي... ترافقها طواويس.. وتتبعها أيائل" [٦٧].

---

[٦٥] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٩).
[٦٦] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٩).
[٦٧] نزار قبَّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (١٠).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

وباستحضار هذه التفاصيل، يظهر قبّاني مدى فظاعة الموت، وشنيع فعله، في تعدّيه على الجمال، وانتهاك حرمته. ويدرك أنّ أصعب ما في الموت هو الغياب، فيطالبها أن تبقى:

"بلقيس

لا تتغيّبي عني

فإنّ الشمس بعدك

لا تضيء على السواحل" [٦٨].

فهي هنا، لا تمثل غياب إنسان، بل غياب الشمس والضياء، ودخول الكون في ظلامٍ مُقيم.

وفي معرض اشتياقه وحنينه لها، يبدأ بمناداتها، لعلها تلبّي وتحضر:

"بلقيس

مشتاقون مشتاقون مشتاقون

والبيت الصغير

يسأل عن أميرته المعطرة الذيول

نصغي إلى الأخبار والأخبار غامضة

ولا تروي فضول" [٦٩].

فهو ينتظر حضورها جسداً، وإن لم يكن، فسماع خبر عنها في نشرات الأخبار كافٍ لري ظمئه وعطشه، وما هذا التلهف الشديد لسماع أي شيءٍ على صلة بها، إلا دليلٌ على حُبِّه الشديد لها، وصعوبة العيش دونها:

"بلقيس..

---

[٦٨] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (١٦).

[٦٩] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٢٨).

تذبحني التفاصيل في علاقتنا

وتجلدني الدقائق والثواني

فلكل دبوسٍ صغير.. قصةٌ

ولكل عقدٍ من عقودك.. قصتان" [٧٠].

ويستمر قبّاني بعملية الاسترجاع، وهو استرجاعٌ موجعٌ ومؤلم؛ لأنها لم تعُد كذلك:

"هل تقرعين الباب بعد دقائق؟

هل تخلعين المعطف الشتوي؟

هل تأتين باسمة..

ناضرة..

ومشرقة كأزهار الحقول؟" [٧١].

وبعد فشل محاولات استحضارها، بذكر تفاصيلهما معًا، وذكر أشيائها، أخذ يستدر عاطفتها، بحديثه عن وحدته وضياعه، وحديثه عن أبنائه:

"بلقيس

يا بلقيس

يا بلقيس

كل غمامةٍ تبكي عليك

فمن ترى يبكي عليا

بلقيس كيف رحلتِ صامتةً

[٧٠] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٤١).

[٧١] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٣٠).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

ولم تضعي يديك على يديا؟" [٧٢].

ويكمل في موطنٍ آخر:

"بلقيس

كيف تركتنا في الريح

نرجفُ مثل أوراق الشجر؟

وتركتنا نحن الثلاثة ضائعين

كريشةٍ تحت المطر؟

أتراك ما فكّرت بي؟

وأنا الذي يحتاج حُبك.. مثل زينب أو عمر؟" [٧٣].

وبين ذكر صفاتها، وتفاصيلها الشخصية، وبين محاولات استعطافها، واستحضارها، كان قبّاني-عبر انفعالات عاطفية مضطربة- يوجه أصابع الاتهام إلى هذا أو ذاك، فيبدأ بلوم نفسه؛ لإحضارها من العراق إلى بيروت:

"أترى ظلمتك إذ نقلتك

ذات يوم من ضفاف الأعظمية؟"[٧٤].

ثمّ يتّهم بيروت بقتلها:

"بيروتُ تقتلُ كل يومٍ واحداً منا

وتبحثُ كل يومٍ عن ضحية" [٧٥].

---

[٧٢] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٣٧).
[٧٣] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٣٨).
[٧٤] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٢١).
[٧٥] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٢١).

وها هو، بعد بيروت، يتّهم الأمة العربية:

"قتلوك يا بلقيس

أية أمّة عربية

تلك التي

تغتال أصوات البلابل" [٧٦].

ثم يتوعّدهم بكل قولٍ عجيب، وفضح تاريخهم:

"قسماً بعينيك اللتين إليهما

تأوي ملايين الكواكب

سأقول، يا قمري، عن العرب العجائب

فهل البطولة كذبة عربية؟

أم مثلنا التاريخ كاذب؟" [٧٧].

فتكون جريمتهم عاراً عليهم، لا نصراً لهم:

"هل موت بلقيس

هو النصر الوحيد

بكل تاريخ العرب؟" [٧٨].

بل سيرون أنّ موتها أكبر فاجعةٍ نزلت بهم، حين يجعله قبّاني موتًا للعروبة:

"ها نحنُ نسأل يا حبيبة

---

[٧٦] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (١٣).
[٧٧] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (١٥).
[٧٨] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٧٤).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

إن كان هذا القبرُ قبركِ أنت

أم قبر العروبة؟" [٧٩].

وكان نزار قبّاني قد أعلن حُكمه، وبيانه الختامي مبكرًا:

"بلقيس

ليست هذه مرثية

لكن على العرب السلام" [٨٠].

قصيدة بلقيس، هي قصيدة كتبتها العواطف المضطربة القلقة، فتنوّعت موضوعاتها: رثاء، مدح، هجاء. كما فاضت صفحاتها بتساؤلاتٍ حمّلها قبّاني دلالاتٍ عديدة: الحسرة، والألم، واللوم، واليأس. بعد أن أشبع مقاطعها بتراكيب النداء؛ عاكسًا مدى حُبِّه واشتياقه وتعلُّقه ببلقيس؛ مما جعله يقيم حوارًا معها، ويحادثها كأنّها على قيد الحياة، دلالة على رفضه القاطع لموتها وغيابها.

خامسًا: رثاء قبّاني للزعيم عبد الناصر:

لقد قام قبّاني برثاء بعض الرموز والقادة العرب، أبرزهم جمال عبد الناصر الذي رثاه بأكثر من قصيدة. ففي قصيدة "جمال عبد الناصر" يبدأ باعترافٍ صريح، يتّهم العرب بقتل عبد الناصر:

"قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك

ليس جديدًا علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

---

[٧٩] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٤٩).

[٨٠] نزار قبّاني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج٤، ص (٢٧).

فكم من رسولٍ قتلنا

وكم من إمامٍ ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء" [٨١].

حيث يؤكد في المقطع السابق، أنَّ العرب يكرهون كل بطلٍ وقائد، ويسارعون إلى التخلُّص منه، وهذا دأبهم منذ القدم، لكنهم لا يعرفون أنَّ بقتلهم لعبد الناصر، إنَّما قتلوا أنفسهم:

"قتلناك يا حبَّنا وهوانا

وكنتَ الصديق وكنتَ الصدوق

وكنتَ أبانا

وحين غسلنا يدينا

اكتشفنا

بأنَّا قتلنا مُنانا وأنَّ دماءك فوق الوسادة كانت دمانا" [٨٢].

وبموته لم يبقَ للعرب شيء، حتى في الأساطير والخيال:

"إلى أين؟

يا فارس الحلم تمضي..

وما الشوط حين يموت الجواد؟

إلى أين؟

كل الأساطير ماتت

بموتك، وانتحرت شهرزاد" [٨٣].

---

[٨١] قبَّاني، نزار، ***الأعمال السياسية الكاملة***، منشورات نزار قبَّاني، بيروت، (د ت)، ج٣، ص (٣٥٥).

[٨٢] نزار قبَّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٥٩).

[٨٣] نزار قبَّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٦٢).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

ثم يقرُّ قبّاني، بحقيقة موت عبد الناصر، ويوقن أنّه لن يعود، ليبين حجم خسارة العرب:

"أنادي عليك.. أبا خالد

أعرف أنّي أنادي بوادٍ

وأعرف أنّك لن تستجيب

وأنّ الخوارق ليست تعاد" [٨٤].

وفي "الهرم الرابع" يرفض قبّاني موت عبد الناصر:

"السيد نام

السيد نام

السيد نام كنوم السيف العائد من إحدى الغزوات

السيد يرقدُ مثل الطفلِ الغافي في حضن الغابات" [٨٥].

فجملة "السيد نام" هي لازمته الخبرية التي يردِّدها تأكيداً لصدقه. ويقول إنّه سيفيق مع الشمس؛ ويأكل الخبز معنا، ويشرب قهوته:

"وسيصحو حين تطلُّ الشمس

كما يصحو عطر التُّفاح

الخبز سيأكله معنا

وسيشرب قهوته معنا" [٨٦].

ثم يستنكر قول الناس بتساؤل ملأته البلاغة، التي جعلته مَعلماً من معالم مصر، لا يغيب:

---

[٨٤] نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٦٤).
[٨٥] نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٦٧).
[٨٦] نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٦٨).

"كيف أصدق أنّ الهرم الرابع مات؟" [٨٧].

ويبدأ بتعداد الأدلة، التي تؤكد استحالة موت عبد الناصر:

"ما زال هنا عبد الناصر

في طمي النيل وزهر القطن

وفي أطواق الفلاحات

في فرح الشعب

وفي الأمثال وفي الكلمات" [٨٨].

ثم يختم رسالته مفتخراً، بأن يعيش المرء في زمن عبد الناصر:

"نجيبهم: في عصر عبد الناصر

اللّه.. ما أروعها شهادة

أن يوجد الإنسانُ في زمان عبد الناصر" [٨٩].

في ارتكازه مرةً أخرى على الحوار، الذي يعدُّ رجاءً وأملًا في الاستجابة له.

الخاتمة:

لقد امتطى نزار قبّاني، صهوة الحُزن والألم، مراتٍ عديدةً في حياته، مما فرض عليه المواجهة فرضًا، لا إرادة له فيها، إلا بالتصدّي لضرباتها الموجعة، عبر تصويره لحالاته النفسية، وإبراز صفاته الشخصية، المكللة بالأسى والفقد، فسعى- بقلمه وكلماته- لتضميد جراحه المفتّحة النازفة؛ بسبب موتٍ هائجٍ مجنون، لا يرحم، ولا يستكين إلى راحة، فراحت يده تتخطّف من آل قبّاني وأهله ما تشاء، الأمر الذي يدفعنا إلى طرح سؤال الدراسة مجددًا:

---

[٨٧] نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٦٧).
[٨٨] نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٧٠).
[٨٩] نزار قبّاني، الأعمال السياسية الكاملة، ج٣، ص (٣٨٠).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

"كيف تجلّى الحُزن والرِّثاء في شعر نزار قبّاني؟"

لتأتي الإجابة عبر ما قمنا بتحليله من قصائد ومراثٍ لدى نزار قبّاني. حيث تجلّى لنا حزنه في جوانب أربعة: الرفض والإنكار لموت هذه الشخصية، وظهرت جليّةً في رثائه لأبيه. بينما انعدام الأمن والأمان، وفقد شعور الحنان، طالعنا عند رثائه لوالدته، التي كانت سرَّ ديمومته. في حين شكّل له موت ابنه توفيق، حالةً من العجز والانكسار والاستسلام، التي راح يداريها بتكذيبه لخبر موته. بينما كان مقتل بلقيس بانفجارٍ ببيروت، وموت الزعيم عبد الناصر، كافيين لتجلي حالة الغضب والحقد والتجريم للموت وأعوانه. أي أنّ ألوان الحُزن تراوحت بين: الرفض والإنكار، وانعدام الأمن والأمان وفقد الحنان، وبين العجز والانكسار، والحقد والغضب.

أهم نتائج الدّراسة:

الموت- في أشعار نزار قبّاني- غير مقتصر على الموت الحقيقي، المتمثل بالفقد والزوال والغياب، بل هو موجودٌ في:

- قصائد الحُب، الذي يفرض على العاشق المواجهة والمجابهة.
- وفي قصائده عن واقع المرأة العربية أثناء سعيها لنيل حريتها، وكسر صمتها.
- وفي قصائده التي تجوب شوارع الوطن العربي؛ عندما جالت قافلة قبّاني الشعرية، محملةً بموضوعات الجهل، والفقر، والخيانة، والاستبداد.

قائمة المصادر والمراجع:

الأصفهاني، أبو فرج (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)، ***الأغاني***، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، ط١، دار صادر، بيروت، (٢٠٠٢).

أنيس، إبراهيم، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد، ***المعجم الوسيط***، ط٢، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧٢).

امرؤ القيس، ابن حُجر الكندي (٥٦٥م)، ***ديوان امرئ القيس***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، (١٩٦٩).

جرير، ابن عطية الخطفي (ت١١٤هـ/٧٣٢م)، ***ديوان جرير***، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٨٦).

الحمداني، أبو فراس (ت٣٥٧هـ/٩٦٨م)، ***شرح ديوان أبي فراس الحمداني***، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٩٩).
حيدوش، أحمد، ***شعرية المرأة وأنوثة القصيدة***، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (٢٠٠١).
الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث (ت٢٤هـ/٦٥٤م)، ***ديوان الخنساء***، شرح حمدو طمّاس، ط٢، دار المعرفة، بيروت، (٢٠٠٤).
ابن ربيعة، مهلهل (ت٩٤ ق. هـ/٥٣١م)، ***ديوان مهلهل بن ربيعة***، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، (١٩٩٣).
السلوم، محمد الزينو، ***أعمال الشاعر نزار قبّاني بين قوسي قزح***، متوفر الكتاب بنسخة إلكترونية على موقع مكتبة نور.
ابن عباد، المعتمد (ت٤٤٨ه/١٠٥٩م)، ***ديوان المعتمد بن عبّاد***، تحقيق حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، ط٣، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (٢٠٠٠).

عتيق، عبد العزيز، ***الأدب العربي في الأندلس***، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٩٥).
قبّاني، نزار، ***الأعمال السياسية الكاملة***، ط٢، منشورات نزار قبّاني، بيروت، (١٩٩٩).
قبّاني، نزار، ***الأعمال السياسية الكاملة***، منشورات نزار قبّاني، بيروت، (د ت).
قبّاني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، ط٢، منشورات نزار قبّاني، بيروت، (١٩٩٨).
قبّاني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، منشورات نزار قبّاني، بيروت، (١٩٩٣).
قبّاني، نزار، ***الأعمال الشعرية الكاملة***، منشورات نزار قبّاني، بيروت، (٢٠١٦).
قبّاني، نزار، ***قصتي مع الشعر***، ط٧، منشورات نزار قبّاني، بيروت، (١٩٨٦).
المعري، أبو العلاء (ت٤٤٩هـ/١٠٧٥م)، ***شرح ديوان أبي الطيب المتنبي***، تحقيق عبد المجيد دياب، ط٢، دار المعارف، القاهرة، (١٩٩٢).
المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت١٠٤١ه/١٦٣١م)، ***أزهار الرياض في أخبار عياض***، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٩٣٩).
ابن منظور، ***لسان العرب***، تحقيق عبد الله الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وسيد رمضان أحمد، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (١٩٨٤).

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488

References:

Al-Asfahani, Abu Faraj (d. 356 AH/967 CE), Al-Aghani, edited by Ihsan Abbas, Ibrahim Al-Saafin, Bakr Abbas, 1st ed., Dar Sader, Beirut, 2002.

Al-Atiq, Abdul Aziz, Al-Adab al-Arabi fi al-Andalus, Dar Al-Nahda Al-Arabiya, Beirut, 1995.

Al-Hamdani, Abu Firas (d. 357 AH/968 CE), Sharh Diwan Abi Firas Al-Hamdani, Dar Maktabat Al-Hayat, Beirut, 1999.

Al-Khansa, Tamadur bint Amr ibn Al-Harith (d. 24 AH/654 CE), Diwan Al-Khansa, commentary by Hamdou Tammas, 2nd ed., Dar Al-Ma'rifa, Beirut, 2004.

Al-Ma'arri, Abu Al-Alaa (d. 449 AH/1075 CE), Sharh Diwan Abi Al-Tayyib Al-Mutanabbi, edited by Abdul Majeed Diab, 2nd ed., Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1992.

Al-Maqrizi, Shihab Al-Din Ahmad ibn Muhammad (d. 1041 AH/1631 CE), Azhar Al-Riyadh fi Akhbar 'Iyad, edited by Mustafa Al-Saqqa, Ibrahim Al-Abyari, Abdul Hafiz Shalabi, Printing Committee for Authorship, Translation and Publishing, Cairo, 1939.

Al-Salum, Muhammad Al-Zino, A'mal Al-Sha'er Nizar Qabbani bayna Qawsi Quzah, available electronically on Maktabat Noor website.

Anis, Ibrahim, Abdul Halim Muntasir, Atiya Al-Sawalhi, Muhammad Khalaf Allah Ahmad, Al-Mu'jam Al-Wasit, 2nd ed., Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1972.

Haydoush, Ahmad, Shi'riyyat Al-Mar'a wa Unuthat Al-Qasida, 1st ed., Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 2001.

Ibn Abbad, Al-Mu'tamid (d. 448 AH/1059 CE), Diwan Al-Mu'tamid ibn Abbad, edited by Hamid Abdul Majeed, Ahmed Ahmed Badawi, 3rd ed., Egyptian Book House, Cairo, 2000.

Ibn Hajar Al-Kindi (565 CE), Diwan Imru' Al-Qais, edited by Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, 4th ed., Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1969.

Ibn Labba'a, Muhalhil (d. 94 AH/531 CE), Diwan Muhalhil ibn Rabi'a, commentary and introduction by Talal Harb, Al-Dar Al-'Alamiya, Beirut, 1993.

Ibn Manzur, Lisan Al-Arab, edited by Abdullah Al-Kabir, Muhammad Ahmad Hasb Allah, Sayyid Ramadan Ahmad, Hashim Muhammad Al-Shazli, Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1984.

Jarir, Ibn Atiyya Al-Khatfi (d. 114 AH/732 CE), Diwan Jarir, edited by Karam Al-Bustani, Beirut Printing and Publishing House, Beirut, 1986.

Nizar Qabbani, Al-A'mal Al-Shi'riyya Al-Kamila, 2nd ed., Nizar Qabbani Publications, Beirut, 1998.

Nizar Qabbani, Al-A'mal Al-Shi'riyya Al-Kamila, Nizar Qabbani Publications, Beirut, 1993.

Nizar Qabbani, Al-A'mal Al-Shi'riyya Al-Kamila, Nizar Qabbani Publications, Beirut, 2016.

Nizar Qabbani, Al-A'mal Al-Siyasiyya Al-Kamila, 2nd ed., Nizar Qabbani Publications, Beirut, 1999.

Nizar Qabbani, Al-A'mal Al-Siyasiyya Al-Kamila, Nizar Qabbani Publications, Beirut, (n.d.).

Nizar Qabbani, Qissati ma'a Al-Shi'r, 7th ed., Nizar Qabbani Publications, Beirut, 1986.

***

https://doi.org/10.20428/jss.v31i3.3488